

هبة الدولة ، غباب أم تخيب؟..... د. البشير قلاتي

هبة الدولة، غباب أم تخيب؟.....

د. البشير قلاتي

جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة-

- تمهيد:

لا يسع المفكر إزاء هذا الموضوع إلا أن يتردد قبل أن يحرك قلمه في بحث إشكاليته، خاصة إذا كان يتحدث من قلب الحدث كما يقولون في اللغة الصحافية..... ولا أخفي توجسي باديء الأمر في المشاركة في مناقشة الموضوع الهام والمصيري؛ نظرا لحساسية الموضوع من جهة، ولتشعب أفكاره من جهة أخرى ، ومن جهة ثالثة أردت أن أقلل من الإحالات، قدر المستطاع وهو ما يبعده ربما عن طابعه الأكاديمي، لكنني استجمعت همتي أخيرا وقررت أن أدلي بدلوي؛ رغبة مني في خوض مجال التفكير في موضوع شائك في خدمة بلدي وأمتي، ووجدتني أتساءل: إلى متى يبقى المثقف الجزائري سلبيا، يخشى التفكير الحر في ما يمكن أن يساهم في حل إشكالات نهضة أمته وتقدم وطنه؟؟؟...

هبة الدولة ، غباب أم تخيب؟..... البشير قلاتي

ولهذا أحيي اللجنة المنظمة للملتقى على اختيارها الشجاع لمناقشة هذا الموضوع الحساس والهام

— مقدمة: ماذا نقصد بالدولة؟ وماذا نريد بهبة الدولة؟: قبل تناول الموضوع يجدر بنا بيان المراد بالدولة وهبة الدولة..... أما الدولة فالمراد بها السلطة الحاكمة والتي تشمل السلطات الثلاث، التشريعية والتنفيذية والقضائية، و يقابلها الشعب المحكوم أو جمهور المواطنين والسلطة جزء من مكونات الدولة إضافة إلى الإقليم والشعب.

- ولهبة الدولة بُعدان : - خارجي : حيث تكسب الدولة هيبتها من خلال قوتها العسكرية ومكانتها الاقتصادية ومعاملات التنمية فيها، وصمعتها في تطبيق الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان، ومساهمتها في السياسة العالمية،،، - داخلي (وهو الذي يهمننا في هذه المداخلة): الخاص بالشعب أو المواطنين، وليس معنى هبة الدولة نشر الخوف والرعب بين أفراد الشعب من سلطتها بواسطة ر أجهزتها المختلفة، بل معناه نشر الأمن والاحترام والتقدير والالتزام الذاتي بقوانين الجمهورية، حيث يشعر المواطن بأنه جزء لا يتجزأ من الدولة،،، من ركائز أي دولة أن تمتلك السلطة التنفيذية هبة وتماسكا ومكانة في نفوس الناس، ولا نتحدث هنا عن فهم بعض الدول للهبة عن طريق القمع والقتل والعنف، بل نتحدث عن هبة الاداء، وتماسك الحضور، وهذا الامر لا يتحقق عبر خطابات وتأكيدات على الهبة بل عبر ممارسة متراكمة.(واقع عملي يشاهده الناس)

— إحتكار العنف من خصائص السلطة الحاكمة: إن إحتكار الدولة (السلطة التنفيذية) للعنف أمر مطلوب بل ضروري باعتباره شرط لسيادتها، لأن السماح بانتشار العنف يؤدي الى فوضى اجتماعية (وليست الفوضى الخلاقة بأي حال

هبة الدولة ، غياب أم تخبیب؟..... د. البشير قلاتي

من (الأحوال)....كيف نتصور سلطة حاكمة دون قوة تسهر على تطبيق القانون على المواطنين؟..... إذ أن احتكار العنف جزء من ماهية السلطة الحاكمة ، غير أن احتكار العنف وتطبيقه يكون في ما يخدم مصلحة الشعب ويحمي حقوقه...، ويحافظ على كلياته الشرعية (الدين ، النفس ، العقل ، العرض والمال)....، ومبرر ذلك واضح هو أن الانسان من طبيعته التمرد والميل الى السيطرة وعدم الالتزام بالقوانين دائما بل تعتريه حالات -بحكم ضعفه البشري- تدفعه للتمرد الاجتماعي، مما يقتضي ردعه : " كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى، إن الى ربك الرجعى" (إقرأ /) ، ولهذا أثر عن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- قوله: " إن الله يزع بالسلطان(أي السلطة القاهرة) ما لا يزع بالقرآن"؛ ولهذا شرعت الحدود ، وقد بين تعالى حكمة القصاص في القتل: " ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب ،لعلمكم تتقون" (البقرة/ 179) ، وفيها نموذج للبلاغة القرآنية حيث يشير إلى أن القصاص يجعل كل من يفكر في قتل أخيه يحجم عن تنفيذ القتل ردعا ، فيوفر بذلك حياة من يريد قتله وحياته.

فمن حق السلطة بل من واجبها سن قوانين ردعية تشمل قوانين عقوبات وتطبيقها بصرامة على كل من تسول له نفسه التشويش وبث الفوضى في المجتمع حفاظا على الصالح الاجتماعي العام،،، أي حفظ المجتمع في أمنه وكياليته (الدين، النفس، العقل، العرض والمال) ،،،،،

– أهمية هيبة الدولة: فرض احترام القوانين ضرورة وجود بالنسبة للمجتمع ؛ حيث لا دولة دون نظام قانوني محترم، ولا نظام دون احترام قانون الدولة ومؤسساتها وما تمثله من سلطات ،وهو ما يعني فرض هيبة الدولة واحترامها على الجميع، وبذلك يضمن المواطن أمنه الاجتماعي بحفظ كلياته الخمس السابق ذكرها، فالمجتمع الذي تفتقد فيه سلطته هيبتها واحترامها يتعرض

هيبية الدولة ، غياب أم تخييب؟..... د. البشير قلاّتي

مستقبله لخطر داهم؛ إذ تسود فيه فوضى الأنانيات الفردية ويسوده الخوف ويفقد المواطن أمنه والأمن أساس كل تنمية، إذ أن المواطن الذي لا يأمن على نفسه أو دينه أو عرضه أو ماله لا يمكنه أن يكون مواطناً صالحاً، ودون الأمن لا تنمية... بل إن النتيجة عكسية فبدل التنمية نجد عندنا تنمية التخلف.

وهذا لا يعني طبعاً زرع شعور المواطن بالخوف من السلطة؛ إذ أن المواطن المرعوب هو نفسه المواطن السلبي غير المبالي الذي يشعر بالقهر الذاتي والاستعباد الداخلي الذي يزرع فيه عقدة الدونية والاستعباد مما يؤثر على قدراته العقلية والابداعية ويقضي على روح المبادرة لدى هذا الكائن الذي يُحوّله القهر والاستبداد إلى مجرد شيء من الأشياء لا كإنسان صاحب عقل ووجود انساني ذو ارادة فاعلة مبدعة،، بسبب مركب التبعية التي أشار إليها (مصطفى حجازي) في بحثه الرائع: "التخلف الاجتماعي، مدخل سيكولوجيا الإنسان المقهور" وهي ما يرجعه إلى شعور كامن بالتبعية لقوى عالمية كبرى عند السلطة الحاكمة نفسها¹. من هنا نتوصل الى التركيز على معنى الالتزام الذاتي لا الالتزام القهري؛ أي شعور المواطن بالانتماء والتماهي مع السلطة (باعتباره جزء منها) فيحترم قوانينها بايجابية البناء الفعال،، لا بدافع الخوف من العقوبة، وإلا احتجنا لأن نضع لكل مواطن شرطياً يراقبه، وهو محال،

— رؤية واقع حال المجتمع الجزائري :

لا شك أن تأمل الأحداث في واقعها أشد اثباتاً للوقائع وتحقيقاً لبناء الأحكام؛ ولهذا يقول صاحب إنجيل الثورة الفرنسية، (جون جاك روسو): "أيها

¹ - انظر: مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجيا الإنسان

المقهور، بيروت: دار الطليعة، ص 142

هيبة الدولة ، غياب أم تخيب؟..... البشير قلاتي
الناس، ومهما يكن أنصت إلى تاريخك كما أقصه عليك أنا، وليس كما تجده في
الكتب الكاذبة التي يدجل بها عليك المؤرخون وافتح كتاب الطبيعة، فهو وحده
الذي لا يكذب...¹..

ولا شك أن ملاحظة الواقع تشير إلى اهتزاز هيبة الدولة التي تتأكد لكل
واحد منا من خلال حالة الفوضى والتسيب العام : على كافة المستويات تقريبا
وفي جميع القطاعات: الاقتصاد: ريعي متخلف، انتاج ضعيف جدا، سواء في
الزراعة حيث نحتل مكانة (ريادية) في استيراد طعامنا، والوضع لا يختلف عن
القطاع الصناعي،، القطاع العلمي والثقافي: تخلف في البحث العلمي والتقدم
التكنولوجي،..... الخ .

غير أنني أشير الى ظاهرتين خطيرتين تعبران فعلا عن حالة انفلات
اجتماعي :

- الأولى في البنية الفوقية (كما يُعبر في الفكر الماركسي) ظاهرة هجرة
الأدمغة، أي هروب نخبة الإبداع العلمي خارج الجزائر لتستفيد منها دول
أخرى....

- الثانية في البنية التحتية : ظاهرة ما يسمى في الإعلام الجزائري بالحرقة
:حيث أن عدد كبير من الشباب يحاول الهجرة السرية إلى دول
أوروبا....إضافة إلى ظواهر خطيرة تعبر فعلا عن حالة من الفوضى واليأس
والقنوط الاجتماعي: ظاهرة الانتحار، جرائم اختلاس المال العام، مظاهر الشراء
السريع وعدم فاعلية سياسة: من أين لك هذا؟؟؟....

¹- عبد الله شريط، الفكر السياسي الحديث والمجهود الايديولوجي في
الجزائر، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م، ص10.

– هوية الدولة : غياب أم تغييب ؟:

أصل الى السؤال المحوري في هذه المداخلة المتواضعة: هل انكماش هوية الدولة واحترام قوانينها والدفاع عنها أمر طبيعي يدخل ضمن التغير البنوي للمنظومة الاجتماعية للمجتمع الجزائري، حيث يخضع لحتمية التطور التاريخي، كما يقول ابن خلدون، أو هو ناتج عن عوامل ذاتية تشير الى فعل تغييب ارادي (تغيير مقصود) بهدف تحقيق مصالح فئات معينة، دون تحديد لنوعية هذه المصالح مادية أو ثقافية حضارية.....

بعيدا عن نظرية المؤامرة، فإني أتصور أن الأمر يميل الى الاحتمال الثاني؛ إذ أن النظرة الشمولة بعيدا عن الذرية التي تطبع عادة الفكر الاسلامي المتخلف منذ عصر الموحدين -كما يقول الأستاذ مالك بن نبي¹، تجعلني أعتقد أن حالة التنافر بين المواطن والدولة الذي تحول الى قطيعة بينهما؛ حيث أضحت السلطة في واد والمواطن في واد آخر: شعورا وفكرا وعملا ،،،،، ولذلك أسباب داخلية عميقة، أهمها حالة الانفصال النكد بين الفكر والسياسة بما خلق نوعا من التوجس الوهمي بين المفكر والسياسي -وهو ما تحرص تغذيته مراكز الصراع الفكري-، وهذا الانفصام أدى الى إعاقه اجتماعية مزمنة، فالفكر دون سياسة يصاب بالشلل لفقدانه الفاعلية العملية، والسياسة دون فكر تصاب بالعمى؛ لفقدانها الرشد العلمي...وهو ما جعل سياستنا في عمومها تتحول الى ما يسميه مالك بن نبي (بوليتيكا) وهي: جماع الفوضى والعشوائية والامسؤولية،.....وكيف لمجتمع يسوده الشلل الفكري والعمى السياسي، أن يتقدم في سيرورته التاريخية الى الأمام؟؟؟؟؟.....

¹ - انظر: ماك بن نبي، وجهة العالم الاسلامي، ط1، دمشق: دار الفكر، 1985م، ص 122

هوية الدولة ، غياب أم تخيير؟.....: البشير قلاتي

ولعل هذا ما يقودني الى ما طرحه الباحث الاجتماعي (برهان غليون) عن ظاهرة قطيعة شاملة بين المجتمع والدولة بسبب أن الدولة في عالمنا العربي تعمل ضد الأمة، كأساس للمحنة العربية...وهذا خلافا للدول المتقدمة الأخرى...حيث في بلادنا العربية يسود منطق شعب الدولة لا دولة الشعب¹.

وما دمت قد أشرت الى ظاهرة هجرة الأدمغة الجزائرية ونوابغ الابداع عندنا فإني أتصور أن العملية ربما ليست عملية هجرة بقدر ما هي تهجير، حيث لا يتوفر للباحث المبدع أدنى الضروريات في بلده مما يضطره للمغادرة الى بيئة تقدره وتحترم عقله، والدليل البحث العلمي إذا لم يتحول حركية ايجابية وتوجيه ثقافي ناجع لا يستحق حتى الورق الذي كُتب عليه،، لماذا تكديس بحوث لا تقدم شيئا للنهضة؟..نصرف الملايير في الفارغات فرغا.....

طالعنا احدى الصحف الجزائرية واسعة الانتشار بما كتبه الكاتب الجزائري (جيلالي خلاص) في ركنه (الوطن في القلب) يروي فيه عن الدكتور محمد بن بوعلي(ابن عم الشهيدة حسية) الذي أخبره أنه سأل أحد كبار المسؤولين في الجزائر عن الاجراءات اللازمة للحد من هجرة الادمغة الجزائرية الى الخارج، فإذ بالمسؤول الكبير المحترم يرفع يديه للسماء ويدعوا: "ربي يدبدهم ويبعدهم عن الجزائر؟؟؟" والنتيجة هي تهجير عمدي لهذه الادمغة باختلاق أسبابها وتيهئة ظروفها، حتى أضحي عدد الأطباء الجزائريين بفرنسا (إحصاء 2009م) يشكلون أكثر من 10.26% من العدد الاجمالي للأطباء الاجانب، أي يحتلون المرتبة الثالثة وبالمقابل نلاحظ تفشي التسبب المريع في

¹-(برهان غليون، المحنة العربية: الدولة ضد الأمة، ط2، بيروت: مركز دراسات الوحدة

العربية، نوفمبر 1984م، ص28

هبة الدولة ، غياب أم تخيب؟..... البشير قلاتي
مستشفياتنا مع إحصاء مخيف لعدد الاخطاء الطبية (500 شكوى أمام العدالة
عام2009م)..¹

ولاشك أن الأمر يشير الى أن ما يمكننا أن نسميه واقع صناعة الفساد عبر
أجهزة اعلامية واقتصادية لا يهتمها سوى المصالح الخاصة قد ساهمت في
القضاء على ثقة المواطن في سلطته حيث يشعر المواطن أنه فاقد لقيمته
الانسانية باعتباره يفتقد مكانة حيوان مدلل في مجتمعات أخرى ،وهو ما يشاهده
عبر قنوات الانفتاح الاعلامي العالمي والذي لا يمكن للسلطة حجب عنه -بأي
حال من الأحوال- ...وهو ما يزرع فيه شعورا رهيبا بالاحباط ويجعله كائن
مهان سلبي تسكنه عقدة الشعور بالنقص ، والمعروف في علم النفس الاجتماعي
أن الهزيمة الداخلية هي أخطر مراحل الهزيمة قبل مرحلة الاستسلام الذي
يؤدي الى حالة الانتحار المعنوي للمجتمع....

- كيف يمكن للدولة استعادة هيبتها؟: لا شك أن الحل لا يمكن أن يقترحه
علينا خبير أجنبي متخصص في استرجاع الهيئات الضائعة.....، لأن هذا سيكون
- بلا شك - مدعاة للسخرية ، فعلى أن نفكر في اتجاه الذات الاجتماعية، أي
أن نبحث عن معادلة المجتمع الجزائري على ضوء خصائصه الثقافية ايجابا
وسلبا ،فكرا وسلوكا،،،على ضوء قاعدة التغيير الإلهية: "إن الله لا يغير ما بقوم
حتى يغيروا ما بأنفسهم." (الرعد،11).

¹ - انظر جيلالي خلاص : ((هجرة الادمغة أو الأدمغة المهجورة،))، صحيفة الخبر يوم
الثلاثاء 22 سبتمبر 2009م / 3 شوال 1430هـ، ص 5 .

هيئة الدولة ، غياب أم تخيب؟..... البشير قلاتي

– الثقة بين الحاكم والشعب أصل هيئة الدولة: مما قرأته عن (كونفوشيوس) حكيم الصين في إحدى محاوراته أنه سأل تلميذه عن أسس الدولة فحصرها في : القوات، الأمن و الثقة،، وأخبره الحكيم أنه يمكن للدولة أن تفقد القوات، وان تفقد الأمن ، لكنها أبدا لا يمكنها الاستغناء عن الثقة ؛لأنها أساس الدولة....

لا شك أن موضوع الثقة أمر أساسي لأن حالة التجسس بين المواطن والسلطة من شأنه أن يجعل كل يتربص بصاحبه،وهو أحد أهم أسباب حاله التسيب واللامبالاة التي تطبع المواطن عندنا...

– تربية التخلق الديمقراطي: أن تبني الديمقراطية لا كنظام سياسي أو كآلية للحكم فقط بل كثقافة اجتماعية ،ولاشك أنها ترتبط بها ارتباطا جوهريا كما يؤكد مالك بن نبي – رحمه الله-¹ ..

الديمقراطية كشعور داخلي بالحرية يقوم على نفي العبودية لغير الله، وهي سلوك اجتماعي يتكون بالتربية على أساس خلقي:وفق قاعدة التكريم الإلهي للإنسان: " ولقد كرمنا بني آدم "،فالديمقراطية لا يمكنها أن تتحقق في مجتمعنا دون توجيه تربوي للتخلق الديمقراطي كما يقول مالك بن نبي (رحمه الله).²، على هذا الأساس يمكن غرس هيئة الدولة كترية هوما يقتضي تقديم القدوة الحسنة من الحاكم ذاته؛ إذ لا يمكن إرساء دعائم حكم راشد دون عدل اجتماعي والعدل أساس الملك كما يقول صاحب المقدمة، والظلم مؤذن بخراب العمران وانهيار الحضارة وهي قاعدة في الحركة التاريخية،،

¹ - مالك بن نبي ، القضايا الكبرى، ط1، دمشق: دار الفكر، 1991، ص 144.

² - نفسه، ص 156